

مناطق الأهوار في القسم الجنوبي من العراق

دراسة لبعض ظواهراتها من الناحيتين الطبيعية والبشرية

الدكتور إبراهيم شريف

مقدم

توجد في السهل الفيضي في العراق مناطق واسعة تنخفض بعض الانخفاض عن المستوى العام لسطحه ، وفي وقت الفيضان ، وهو يحدث في الربيع ، تغمرها المياه ، وفي الأوقات الأخرى من السنة تنحصر عن البعض منها كلياً ، وتنحصر عن البعض الآخر جزئياً ، ولكنها جميعها تحمل تسمية عامة هي الأهوار ، وتوجد أكبر مناطقها اتساعاً في القسم الجنوبي منه ، وهي ذات مياه دائمة ، ويعيش في جهاتها بعض من الناس ، وهي وإن كانت جزءاً من أرض العراق إلا أنها تعتبر بجمولة لكثير من جمهور العراقيين الذين يعيشون وراء حدودها ، ويشعر المستمع إلى بعض من يتحدث منهم عنها بأن الحديث يجري حول مجتمع بدائي يأكل أفراد الغربة عنه ، أو على الأقل يعضونهم ، وإنصافاً للحقيقة يمكن القول بأنه مجتمع يعيش في مستوى كبير للحضارة إذا كان مقياس التحضر هو قدرة المجتمع على تفهم مقومات بيئته واستغلالها كما ينبغي أن تستغل ، وهم لا يأكلون الغربة ولا يعضونهم ، وإنما يكرمونهم بالغ الإكرام إذا أنسوا إليهم ، والصورة غير الصحيحة عن سكان هذه الأهوار استمرت منطبعة في ذهني بعض الوقت حتى قرأت عنهم وتحوّلت بينهم متصلاً ببعض منهم ، وقد قرأت عن هذه المنطقة التي يدور البحث حولها كتائين ولم أعثر على كتب أخرى غيرهما ، وأحدهما هو : Haji Rikkan, Marsh Arab, by Fulanain, London 1927. والمؤلف كتب في الصفحة الأولى من كتابه بالخط الكبير عبارة « إلى محبتي فلانة » ، ومن الواضح أن تسميته فلانين التي اتخذها المؤلف لنفسه تسمية مستعارة ، وقد ذكر سير أرنولد ولسن A. Wilson في قائمة مراجع كتابه Loyalties, Mesopotamia, Vol. I, - 1914 - 1917 Oxford University Press, 1936

الاسم الصحيح للمؤلف وهو : Hedgecock, S. E. & Mrs. وهذا الكتاب قيم ، ومؤلفه قوى الملاحظة وبارع في التصوير ، وقد أعطى فيه للأهوار صورة تقرب من الحقيقة ، كما أنها توضح بعض نواحي الجغرافية الطبيعية وبعض نواحي الجغرافية الاجتماعية ، وقد أضاف إلى كتابه صوراً لتوضيح بعض الظواهر ، كما ذكر بعض القصص الموضحة لها أيضاً ، والمنطقة التي زارها المؤلف وكتب كتابه عنها هي منطقة هور الحوزة وتقع في شرق مجرى نهر دجلة .

والكتاب الآخر هو : The Blood Feud, London, 1937 ومؤلفه Captain G. F. Gorry والمؤلف كان موظفاً بالبوليس العراقي وكان مركزه في مدينة الناصرية ، ويدخل ضمن دائرة نفوذه قسم كبير من هور الحمار ، وقد ساعدته وظيفته على زيارة بعض جهات هذا الهور والاتصال بسكانه ، وهو كرجل من رجال البوليس قد اهتم في كتابه بذكر الخصومات التي تحدث بين بعض من السكان وبين بعض آخر ، كما اهتم بإيضاح بعض أسبابها وبعض ملابساتها ونتائجها ، وهو في هذه الحالة يعتبر مرجعاً قيماً ، وهو وإن لم يكن بالنواحي الأخرى طليعية كانت أو اجتماعية ، إلا أن الجغرافي يلبس فيه بعض صور عنها .

وقد قوت قراءة هذين المرجعين الرغبة في نفسى على زيارة هذه المناطق من الأهوار والتعرف عليها ، وساعدني على تحقيقها صديق الدكتور جميل سعيد الأستاذ بدار المعلمين العليا ببغداد ، وكان فضل الحكومة العراقية علينا كبيراً فإنها قد أرسلت إلى مصالحها هناك خطابات توصية بمساعدتنا والمحافظة علينا ، وفي مساء يوم الخميس ٢٨ يناير سنة ١٩٤٨ ، ركبنا وصديق من بغداد قطاراً متجهاً نحو البصرة وغادرناه في محطة أور وأخذنا قطاراً آخر حملنا إلى الناصرية ، وهناك انضم إلينا صديق آخر هو الأستاذ تقي الشيخ راضي المفتش بمنطقة المعارف هناك ، وقد أفادتنا مرافقته كثيراً ، فهو بفضل لباقة وكثرة معارفه قد سهل لنا كثيراً من الصعوبات التي واجهتنا ، ومن الناصرية ركبنا سيارة إلى سوق الشيوخ ، ومن هناك استأجرنا زورقاً بخارياً صغيراً حملنا في مجرى القرات وفي بعض فروعه ، ثم عجز أخيراً عن السير عند مصب جدول المزلق في بركة الحمار ، وقد تركناه وركبنا بعض الوقت في هذه البركة مشحوناً كان صاحبه بحركة بعضى طويلة تسمى الماردى ،



الشيخ ثباني ابن الشيخ سالم الجيوني
(وهو من عريجي كلية الحقوق ببغداد)



للشعوب
(قارب الأهوار وسيلة مواصلاتها الوحيدة)

ولم أكن مطمئناً إلى ركوبه فهو طويل حقاً ، ولكنه ضيق جداً ، والجالس فيه ينبغي أن يمسك بما في جانبيه ليحفظ توازنه إن استطاع ، ولم يطل خوفي من السقوط في الماء فقد قابلنا زورق بخارى أصغر حجماً من الزورق الذى كنا نركبه أولاً وقد استأجرناه ، واستمر تحت تصرفنا خلال المدة التى قضيناها في هور الحار زورر بعض جهاته ، وبعض مراكز العراق فيه وهى كلها متشابهة في مظهرها ومصنوعة من القاب ، وخير دليل قابلهنا هناك ، على أن التور قد غزا الظلمات التى تكتف مناطق الأهوار ، كان شيخ يلبس عباءة وعقالاً وشماغاً^(١) كما يلبس العرب من البدو ومن الفلاحين ، وعرفت أنه متخرج في كلية الحقوق ببغداد ، وهو الشيخ ثعبان ابن الشيخ سالم الخيون شيخ بنى أسد في ناحية الجبايش ، وقد صاحبنى بعض الوقت وشرح لى كثيراً من الظاهرات ، واستفدت كثيراً من ثقافته الواسعة عن مجتمع الأهوار .

وفي القرنه غادرنا الزورق البخارى واستأجرنا سيارة سارت بنا على الضفة اليمنى لنهر دجلة إلى مدينة العمارة ، وهناك غمرنا السيد متصرف لواء العمارة بالكثير من فضله ، فقد أعارنا الزورق البخارى الخاص به ، كما تفضل وأمر بفتح بعض أبواب قطرة جدول الكحلاء حتى يرتفع منسوب الماء فيه ويستطيع حمل الزورق إلى أبعد مسافة ممكنة من مجراه ، وقد حملنا إلى مضيف الشيخ عباس ابن الشيخ محمد العربى أكبر شيوخ قبيلة أبو محمد ، واثنى لأشعر بالعجز عن أن أصف كرم استقباله لنا وكريم ضيافته ، وكانت وجهتنا منطقة الشدة في داخل هور الحوزية ، ومن الحديث عرفت اننا قادمون إلى جهة مجهولة حقاً يعيش سكانها في داخل أهوارهم بعيدين بدرجة كبيرة عن مؤثرات العالم الخارجى ، وربما لم يروا حقيقة مديناً يلبس قاعاً مثل قاطى (أى بدلة مثل بدلتى) كما سمعت من بعض الأفراد ، ولم يروا أيضاً جملاً كما سمعت من بعض آخر ، ومنطقة الشدة تدخل ضمن دائرة نفوذ الشيخ عباس ، وقد أخبرنى بأنه لم يزرها منذ نحو ستين وأنه سينتظرها فرصة ويرافقنا وقد تفضل وأوفى بوعدده ، وسكان منطقة الشدة ببطاء حقاً ، كنا نرى من بعيد أشباحهم في بعض القرى فإذا اقتربنا منها انخفضت الأشباح وابتدت

(١) البشماغ يسمى أيضاً كفية ، وهو المنديل الذى يوضع فوق الرأس ونحت العقال .

القرية خالية ، ولكن العميون المتلصصة لا تلبث بعد أن ترى شيخها أن تظهر مرحة أجمل ترحيب بالشيخ وبضيوفه ، وحالة العناية تبدو عليهم حقاً ، ولكنهم مع ذلك يضيفون بأحسن ما عندهم ويضيفون إليه حلول ترحيهم ، وكان يوماً هناك شديد البرودة ، ومع ذلك فقد بدا بعض من أطفالهم عرايا كالودتهم أمهاتهم ، وكذلك كان الرجال إلا من عباءة خفيفة من الصوف تسمى « بشت » ، وقد انتهت رحلتنا عند منطقة الشدة واستفرقت نحو ثلاثة أسابيع ، لقينا في أثناءنا كل عون وكل رعاية من السكان ومن موظفي الحكومة ، وعبارات الشكر تقصر عن أن تفهم بعض حقهم .

ومادة البحث الذي أقدمه قد جمعت بعضاً منها من هذه الرحلة وأخذت البعض الآخر من المرجعين المشار إليهما سابقاً ، واستعنت في تحديد أماكن بعض القبائل التي تسكن هناك بكتاب « مبادئ السوق وجغرافية العراق العسكرية » وهو تأليف العقيد الركن عبد اللطيف أمين وطبع بغداد سنة ١٩٤٦ ، كما استعنت استمارات بسيطة يعرض كتب أخرى وبعضها قليل الأهمية من ناحية هذه الدراسة ، وسأشير إلى أهمها في بعض نقاط من البحث .

النامية الطبيعية

التكوين — الموقع — المنظر العام :

عند ما ظهرت منطقة اليباس حول مدينة البصرة ، وهي التي تكون جزءاً من اليباس الذي يكتنف في الوقت الحاضر جانبي مجرى شط العرب ، حصرت بينها وبين اليباس القديم في سهل العراق وهو الذي عرف باسم سهل بابل ، منخفضاً واسماً مقتطعاً من الخليج الفارسي ، وفي التاريخ القديم عرف القسم الشرقي منه باسم أهوار سوسيانا وعرف القسم الغربي باسم الأهوار الكلدانية ، ثم أخذت مساحة هذا المنخفض تنقلص تدريجياً كما أخذ قاعه يرتفع بسبب ما أنصب فيه خلال القرون الماضية من رواسب فيضانات أنهر كبيرة وجداول تنحدر إليه من الأراضي المرتفعة التي تكتنفه من بعض الاتجاهات ، وفي الوقت الحاضر تطلق على بقايا أهوار سوسيانا تسمية هور الحوزة ، كما تطلق على بقايا الأهوار الكلدانية تسمية هور الحار ، وتسمية « الهور » تسمية عامة وتطلق ، على كل

مناطق المستنقعات في السهل الفيضي في العراق ، ولكنها تطلق أيضاً إطلاقاً خاصاً على المناطق الضحلة منها ، وهي المناطق التي ينمر فيها القصب (الغاب) والبردى (البوص والحلفا) وغيرهما من نباتات المستنقعات ، أما المناطق العميقة نسبياً ، وهي التي تخلو من هذه النباتات ، فإن عليها تطلق تسمية البرجة (البركة) ، ويمكن القول بأن عمق القسم الأكبر من هذه المستنقعات لا يتجاوز ثلاثة أقدام .

وهو الحوزة عظيم الاتساع وهو يمتد في شرق نهر دجلة بين مدينة العمارة وبين مقابل البصرة على شط العرب ، كما يمتد وراء الحدود السياسية في داخل الأراضي الإيرانية ، وتصرف إليه في وقت الفيضان مياه نهر كرخه ونهر الطيب ونهر دوبرج وبعض آخر من الجداول الصغيرة ، كما تنصرف إليه بعض مياه نهر كارون ، وهي كلها تنحدر إليه من جانب هضبة إيران ويكون وديانها مداخل إليه لبعض العناصر الفارسية والكردية التي تسكن في الحافة الجنوبية لهذه الهضبة المشرقة عليه ، وينصرف إليه كذلك قسم كبير من مياه نهر دجلة عن طريق كثير من الجداول ، وهي تكون مداخل أخرى إليه للعناصر العربية التي تسكن في سهل العراق ، وأهم هذه الجداول هي الكحلاء والمشرح والمجرية ، والجداول الأخرى يخرج من نهر دجلة بالقرب من مدينة قلعة صالح ، أما الجدولان الأولان فإنيهما يخرجان منه عند مدينة العمارة ؛ والكحلاء هي أهم الجداول التي تنصرف بعض مياه نهر دجلة إلى الحوزة ، وهي تحمل إليه نحو نصف المياه التي يحملها هذا النهر فوق منطقة تفرعها منه ^(١) ؛ وهي لذلك تبدو فرعاً كبيراً له وتضارعه في اتساعه وهي مثله مجرى طبيعي ، وتشبهه في ظاهرة تعرجاته ولوفاته (ثباته) الكبيرة ، وتبدو ضفافها خلال مسافة تبلغ نحو ٤٠ كم ، فيما بين العمارة وبين مسيعة ، عالية وفوق مستوى الفيضان ، وفيها فتحات مختلفة الاتساع تنصرف المياه الزائدة عن طاقتها في وقت الفيضان إلى المنخفضات التي تقع وراء ضفافها ، وعلى هذه الضفاف يوجد من أشجار النخيل نطاقات قصيرة الامتداد وضيقة الاتساع ،

(١) يبلغ تصرف الكحلاء في وقت الفيضان نحو ٢٢٠٠٠ م^٣ في الثانية وفي وقت الانخفاض ٢١٥٠٠ م^٣ . ويبلغ تصرف نهر دجلة أسفل منطقة التفرع ١٢٥٠ م^٣ في وقت الفيضان و ١٥٠ م^٣ في وقت الانخفاض . راجع : Willcock, Sir W: The Irrigation of Mesopotamia, London, 1917, P. 22

أما عند شواطئ المجرى نفسه فيمو الغاب والبوص وبعض من أشجار الصفصاف ومن أشجار الغرب (الحور) ، ومسيده المشار إليها بلدة كبيرة وهي مركز ناحية (١) تنسب إليها ، وعندها يخرج من الضفة اليمنى للكحلاء جدول المسيحي متجهاً نحو الجنوب الشرقي ويصب في بركة كبيرة تقع شمال الضفة اليسرى لجدول المجرية ، أما الكحلاء فإنها تتمر بحفظة ببعض اتساعها وبضفافها العالية إلى مضيف شيوخ قبيلة البر محمد ، ثم تأخذ في الاضمحلال حيث تتوزع في جدولين رئيسيين يتجه أحدهما نحو الشمال ثم نحو الشمال الشرقي ويعرف باسم جدول الزبير ، أما الآخر فيتمر في اتجاه الكحلاء نحو الجنوب الشرقي ويعرف باسم جدول أم الطوس ، وتنصرف مياه كل منهما في النهاية إلى هور الحريزة ، ويبدو جدول أم الطوس أكبر اتساعاً ، ولا يزال يبدو جدولاً كبيراً وضافته عالية بعض العلو إلا أنه يضعف تدريجياً بسبب ما يخرج منه من مياه خلال جداول أخرى وفحات الري ، ويبدو هذا الاضمحلال واضحاً عند مضيف آخر لآل محمد ، ويقع عنده الشيخ عباس ابن الشيخ محمد العربي كبير شيوخ هذه القبيلة ، ومن هناك تحمل أم الطوس تسمية الأجرع ، ويتلاشى ارتفاع ضفافها وتتوزع مياهها في جداول أخرى صغيرة لها تسميات مختلفة ، وتنصرف في منخفضات تكتفها .

وهور الحار هو أوسع الأهوار في داخل حدود العراق وتقدر مساحته بنحو ٥٢٠٠ كم^٢ (٢) ، وإليه تنصرف مياه نهر دجلة ، وحتى النصف الأخير من القرن التاسع عشر كان ما ينصرف من مياه هذا الهور إلى الخليج الفارسي يجري في مجرى واضح بعض الوضوح لنهر الفرات ، ويمتد خلاله مسافة نحو ١٠٠ كم إلى القرنة حيث كان يلقى بالمياه الجارية في نهر دجلة ، ثم يحملها معاً شط العرب إلى الخليج الفارسي ، وكان هذا المجرى صالحاً للبلاحة ، وقد سلكه تشرفي بسفيته البخارية أثناء رحلته في سنة ١٨٣٦ ولكشف مجرى نهر الفرات ،

(١) ينقسم العراق من الناحية الإدارية إلى ألوية (مديريات) وكل لواء ينقسم إلى أقضية (مراكز) وكل قضاء ينقسم إلى نواحي ، والناحية يرأسها موظف حكومي يسمى مدير الناحية ، وهي تنقسم إلى قرى ورئيس كل قرية يسمى المختار .

(٢) الدكتور أحمد سوسة ، وادي الفرات ومشروع سدة الهندية ، الجزء الثاني ، بغداد ١٩٤٥
الناحية رقم ٢ ص ٢٧٢

أما في الوقت الحاضر فإن القسم الأوسط منه في داخل هور الحار قد انظر بعد أن اتخذت المياه لنفسها منفذاً في ضفته اليمنى متجهة نحو الجنوب وغامرة مساحة واسعة من الأرض المنخفضة ومكونة ما يعرف محلياً باسم هور سناف ، وهناك اتخذت لنفسها منفذين رئيسيين إلى شط العرب ، ويعرف أحدهما باسم جرمة^(١) على ، ويعرف الآخر باسم الماسدية^(٢) ، ومعظم المياه المنصرفة تجري خلال المنفذ الأول ، ويجري الفرات غير واضح المعالم خلال هور سناف إلا قبيل الجرمة ، والمياه المنصرفة خلال هذين المنفذين هي مياه وحده ، أما مياه نهر دجلة المنصرفة إلى هور الحار فإنها تتجمع في القسم الأدنى من المجرى القديم (نهر الفرات في هذا المجرى) وتجري فيه نحو القرنه منصرفاً إلى شط العرب ، ولا يزال هذا القسم من المجرى محتفظاً بمظهره القديم وعلى الأخص فيما بين الجبايش وبين القرنه ، ويبدو أن سبب احتفاظه بمظهره يرجع إلى أنه متأثر بحركات المد والجزر^(٣) التي تحدث في الخليج الفارسي ويأثر بها شط العرب .

ومقدمات هور الحار تبدو جنوب خط يمتد بين العمارة وبين التاصرة ، ونحو نصف مياه نهر دجلة تخرج من فتحات عديدة في جانبه الأيمن وتجرى في جداول مختلفة الاتساع وأهمها البيرة والمجرى الكبير والمجرى الصغير^(٤) ، وهو يعرف أيضاً

(١) الجرمة من النهر الكبير .

(٢) يقولون ولكوكس من سبب هذا التحول في تسمية المياه (كان نهر الفرات قبل نحو ٣٠ سنة يتصل بنهر دجلة عند القرنه . وكان مجراه يحمل مياهه كما يحمل بعض مياه نهر دجلة . ولكثرة هذه المياه وشدة ضغطها على جانبي المجرى حدثت كسرة في الجانب الأيمن واندفعت المياه خلالها غامرة منخفضاً واسعاً يقع وراءها ومكونة لنفسها مجرى آخر يسبب في شط العرب عند جرمة على . أما المجرى القديم فإن الأمواج قد حطمت جوانبه وعرتها ولا يزال بعض منها واضحاً وتدل عليه تكاثفات من أشجار النخيل ومراكز لعمران . راجع Willcocks, Sir A.: The Irrigation of Mesopotamia op. cit. P. 37 . وراجع أيضاً الدكتور أحمد سوسة ، وادي الفرات ومشروع سدة الهندية الجزء الثاني المرجع السابق ، ص ٤٧١ وما بعدها .

(٣) كوردن هنت ، الأسس الطبيعية لجغرافية العراق ، تصريب باسم محمد الخلف ، بغداد ، ١٩٤٨ ، ص ١٦٢ .

(٤) دلت الأبحاث على أن مياه نهر دجلة فوق العمارة بتأثير تتوزع خلال القسم الأخير من فصل الصيف على النحو الآتي : ٢٦ ٪ تنصرف بواسطة جداول البيرة ، ٣٥ ٪ بواسطة جداول الكتلان والشرح ، ٢٠ ٪ بواسطة جداول الطبر والمجرى الكبير والجرمة ، والباقي وقدره ١٩ ٪ يبقى في نهر دجلة جنوب قلعة صالح . راجع كوردن هنت ، الأسس الطبيعية لجغرافية العراق ، المرجع السابق ، ص ١٥٥ - ١٥٦ .

باسم الطبر ، وتنصرف مياه هذه الجداول في هور أبي القلام وبحوثة أخرى من الأهوار متصلة به ، وبعض من هذه المياه يتبع انحدار السطح في جداول أخرى وينصرف إلى هور الحار ، وقبل الحرب العالمية الأولى كانت مياه نهر دجلة تفيض على جانبه الأيمن في وقت الفيضان وتغمر الأراضي الواقعة وراءها وتصل بين هور الحار وبين هور أبي القلام ، إلا أن الإنجليز أثناء هذه الحرب قد قروا هذا الجانب ورفعوه ومدوا عليه خطاً لسكة الحديد فيما بين القرنة وبين العمارة ، وقد استمر هذا الخط بعض الوقت ثم أهمل ، إلا أن مكانه لا يزال مرتفعاً ويكون في الوقت الحاضر جزءاً من طريق السيارات الممتد بين بغداد وبين البصرة عن طريق الكوت والعمارة ^(١) ، وينصرف بعض آخر من مياه نهر دجلة إلى هور الحار عن طريق شط البدعة وهو أحد المصبين الرئيسيين لسط الفراف ^(٢) (يعرف أيضاً باسم شط الحى) ، ومن المعروف أن هذا الشط فرع كبير لنهر دجلة وقد أنشئت سدة (قناطر) الكوت لتنظيم توزيع المياه بينهما .

أما مياه نهر الفرات ، جنوب الناصرية ، فإن بعضاً منها ينصرف خلال عدد من الجداول مختلفة الاتساع إلى منخفضات تصل في وقت الفيضان بهور الحار ، وأهم الجداول التي تتفرع منه فيما بين الناصرية وبين سوق الشيوخ ، جدول عكيكه ، وهو يعرف أيضاً باسم جدول السفر ، وهو جدول كبير يخرج من جانبه الأيسر فوق سوق الشيوخ بنحو ٧ كم ؛ ويقال أنه كان قبل الحرب العالمية الأولى مهياً في نقل الاتصالات بين البصرة وبين الناصرية ^(٣) خلال هور الحار ، إلا أن القبائل التي تمكن على صفائه كانت غير مستقرة ، وقد سببت الاضطرابات التي أحدثتها عرقلة في استمرار سير هذه الاتصالات .

أما المجرى الأصلي لنهر الفرات فإنه يمر بسوق الشيوخ ، وهي تقع على جانبه الأيمن ، وبعدها بنحو ٧ كم . وعند مركز ناحية الجرمة تتوزع مياهه في فرعين رئيسيين ، يتجه أحدهما نحو الجنوب الشرقي ويعرف باسم جرمة أم نخلة ويتجه

(١) العقيد الركن عبد المطلب أمين ؛ مبادئ الدوق وجغرافية العراق العسكرية ، بغداد ، ١٩٤٦ ص ١٥٢

(٢) الدكتور أحمد سوسة ؛ تطور العراق ، بغداد ، ١٩٤٦ ص ١٢١

(٣) Admiralty War Staff; All and book of Mesopotamia, vol. 2, London, 1917, (٢) PP 114-15 & 134-6

الأخر نحو الشمال الشرق ويعرف باسم جرمة بنى سعيد، وفيما يليها يوجد مجرى ثالث، ولكنه منطمر وماخذه مغلق بسداد من الطين، ويعرف هذا المجرى المنطمر باسم الحفار، وانظماؤه حديث، فإن القوات العسكرية الإنجليزية قد اهتمت به أثناء الحرب العالمية الأولى فظهرته من الرواسب وعمقته وجعلته صالحاً لسيور زوارقها وبعض سفنها أثناء تقدمها نحو الناصرية، إلا أن حفره وتعميقه قد ترتب عليه أن انصرف إليه بعض المياه التي كانت تنصرف قبلاً إلى جرمة أم نخلة وإلى جرمة بنى سعيد، فأضر ذلك بحقول الشلب (الآرز) الواسعة على هاتين الجرمتين، وقد اضطرت الحكومة العراقية إلى سده عندما ارتفعت شكوى القبائل صاحبة هذه الحقول .

واتساع نهر الفرات فيما بين الناصرية وبين الجرمة، وهي مسافة تبلغ نحو ٤ كم. يتراوح بين ١٣٠ — ١٨٠ متراً، وضافه عالية بعض العلو وعليها نطاق من النخيل غير متسع، وعلى شواطئه تنمو شجرات من الغرب (الخور) والصفصاف وبعض القصب (الغاب)، ويقطع ضفافه كثير من دُمُحات الجداول، وهي تستخدم في وقت الفيضان لتصريف المياه الزائدة عن طاقته إلى الأراضي المنخفضة ورائها، أما في وقت الانخفاض فإنها تسد لحفظ مياهه من التبدد، وتروى المزروعات منه في هذا الوقت بواسطة المضخات وبواسطة الساعورات وهي تدار غالباً بواسطة الخيل .

والطريق الذي سلكته من الجومة إلى بركة الحمار هو طريق جرمة بنى سعيد، وهذه التسمية لا تطلق على كل المجرى وإنما تغلب على قسمه الواقع في ديرة قبيلة بنى سعيد، أما بعد ذلك وخلال ديرة قبيلة آل جوير وبعض قبائل أخرى، فإنها تحمل تسمية المزلق (المزج)، ومجرى جرمة بنى سعيد ضيق وضافه قليلة الارتفاع، ويبدو شريط النخيل النامي عليها هزيلاً وغير كامل الاتصال، وفي المناطق التي يقطع فيها تبدو الصفاف واطة ومعرضة لطغيان المياه عليها، ووراءها تبدو أراضي أكثر انخفاضاً وفيها بعض المياه، أما المزلق فجراه أكثر ضيقاً وضافه أكثر انخفاضاً ولا أثر عليها لأشجار النخيل، وهو يزداد ضيقاً وتحتني معالم ضفافه قليل مصبه في بركة الحمار بالقرب من قرية بنى اسماعيل، وهناك كانت مياهه ضحلة بالدرجة

التي عجزت عن أن تحمل زورقاً بخارياً صغيراً خلال مصبه في هذه البركة، ويلاحظ أن هذا كان في أوائل شهر فبراير وكانت بعض المياه من أمطار الشتاء قد جرت فيه ، ولقد اضطررت أنا وزملائي الى ترك هذا الزورق وركوب مشحوف^(١) حملنا بعض الوقت في بركة الحمار حتى حملنا زورق بخارى آخر ، وبركة الحمار سطح واسع من الماء وتحلو معظم أجزائها من القصب والبردى والنباتات الأخرى ، وتبدو ضفافها بعيدة نحو الأفق وعندها تعلو سيقان أشجار النخيل وتدل على وجود بعض مراكز للفراق مثل القهود والحمار والبوشامة ومخفروانه ، وقيل نهايتها نحو الشرق سلك الزورق طريقه خلال مجرى ضيق وقليل العمق ، إلا أنه محدد بعض التحديد ، وقد أخذ يزداد اتساعاً وعمقاً بالاقتراب من مركز ناحية الجبايش .

والجبايش بلدة كبيرة وعندها يبلغ اتساع مجرى الفرات نحو ٥٠ متراً ، إلا أن ضفافه لا تزال منخفضة ومعرضة للغرق في وقت الفيضان ، ويميزها نفاثان من الغاب ولا يرى عليها النخيل إلا عند الأجزاء العامرة منها ، ويزداد مجرى النهر اتساعاً نحو القرنة كما تزداد جوانبه تمداً وارتفاعاً ، وتبدو عليها نفاثات من النخيل تزداد اتصالاً واتساعاً بالاقتراب من المدابنة ، وهي قرية كبيرة ، وبعدها يسترد الفرات بعض مظاهر عنفوانه ، وتمتد أشربة النخيل على ضفافه أكثر اتصالاً وأكبر اتساعاً ولا تنقطع إلا عند الفتحات ، ومعظم المياه المنصرفة منه هناك تخرج من فتحات في جانبه الأيمن وتنصرف الى شط العرب خلال جدول يعرف باسم الشاقي ، أما الجدول الذي ترى على جانبه الأيسر فإنها مغذية له وتحمل اليه بعض مياه نهر دجلة ، ومن الملاحظ أن مجرى المياه في وقت الانخفاض يقترب كثيراً من الضفة اليمنى ويلاصقها مباشرة في بعض المناطق ، بينما تبدو الضفة اليسرى

(١) المشحوف نسبة عامة لأنواع من القوارب تتميز بأنها مغطاة بالقار وبأنها طويلة الامتداد وضيقة الاتساع بحيث لا يمكن لشخصين أو ثلاثة فيها متجاورين ، كما تمتاز بأن مقدمتها مرتفعة كثيراً وكذلك مؤخرتها لحد ما ، وهي محمكة بالمباردى وهي قصبة قوية وطويلة وتستعمل كاستمالة المدرة . ويعرف أكبر أنواعها باسم البركاش وأصغرها باسم الشلية ، ومنها الطرادة وهي تستعمل في الحروب ولذ الغزو وتمتاز بطولها الذي قد يصل إلى نحو ٢٠ أمتار وتحمل ٦ أشخاص يجلس الواحد منهم وراء الآخر لأنها ضيقة أيضاً ولا يتجاوز اتساعها متراً ، وهي مثبنة الصنع ومثبتة بمسامير تبدو رؤوسها النليظة ل داخلها مكونة صفوفًا متوازية ، والأكبر من المشحوف يسمى البلم وهو قارب صغير يشبه القوارب المصرية ، وله شراع وهو عادة غير مغطى بالقار ، وبعض أنواعه يطل بالقنار ويسمى كلفة .

بعيدته عنه ، وعلى الشطوط الواقعة بينهما كانت قطعان من الحيران ، وكثير منها من البقر ، ترعى في مخلفات حقول كانت مزروعة بالذرة البيضاء وبعض أنواع من الدخن .

وتتسع مساحة الأهوار تدريجياً عند وصول مياه الأمطار الشتوية ، إذ تحمل الجداول من الأنهار بعضها إلى المنخفضات وتصل بين البعض منها وبين البعض الآخر ، وعند ما تصل مياه الفيضان الناجمة من ذوبان الثلوج فوق مرتفعات هضبة أرمينيا في فصل الربيع ، تأخذ هذه الأهوار ذروة اتساعها ، إلا أن عمق مياهها لا يزداد إلا قليلاً ، وربما لا يتجاوز الفرق بين أخفض مستوى لها وبين أعلاه عن ٣ متر ، ولكنه ارتفاع كاف لأن يحول مظاهرها إلى مظاهر بحيرة عظيمة الاتساع تنطمس تحت مائها معالم الجداول الصغيرة وبعض من الجداول الكبيرة ، كما يختفي كثير من الجزر غير العامرة بالسكان ، ولا يبدو على سطحها إلا أطراف القصب وبعض سيقانه ، وكذلك الجزر الكبيرة العامرة بالسكان وتشير إليها أشجار النخيل النامية على سطحها ، وحتى في هذه الجزر تدخل المياه في المنخفضات وتفصل بين الأكواخ ، ويكون الانتقال بين البعض منها وبين البعض الآخر بواسطة الأنواع الصغيرة من المشايخ .

ويحدث قدوم مياه الفيضان ثورة في الأهوار ، فرعاة الجاموس يحرقون الشايخ من الغاب والبردى في فصل الشتاء حتى لا يشاركه النبات الجديد الذي يخرج من الجذور في التغذى بالدهلة (الغرين) التي تحملها مياه الفيضان ، وزراعي الشلب (الأرز) يندرون حبه في مبادر (مشاتل) استعداداً لثقل الشتال وزرعها في بعض المناطق عند حافات الهور ، وهم يحرقون أيضاً بعض مناطق الغاب والبردى ويطهرونها لإضافتها إلى الأراضي التي يمكن زراعتها بالأرز ، وزراعي الذرة البيضاء والدخن يمدون المبادر لها أيضاً استعداداً لزراعتها في مناطق أخرى عند حافة الأهوار ، وزراعي الدخن (الحنطة والشعير) يقيمون سدداً حول جوانب حقولهم التي يخشى من طغيان مياه الفيضان عليها ، كما يطهرون الجداول والقنوات التي تحمل إليها المياه لريها : وفي هذا الوقت أيضاً يزداد نشاط الصيادين ، فالطيور البرية تأتي مهاجرة في أعداد كبيرة يدفعها البرد من الجهات الشمالية ،

وهناك تجد غذاءها وأفرأ من الأسماك الصغيرة ومن الحبوب المزروعة وسبقاتها
الغضة ، ومياه الفيضان تأتي حاملة كيات كبيرة من الأسماك الصغيرة والكبيرة ،
ومنها الأسماك التي كانت قد صعدت من الأهوار في الأنهار لتضع بيضها ،
وفيه أيضاً يزداد النبات الغض ويجد الجاموس فيه غذاءاً طيباً له كما يغطي سطح
البرك ونحوها بلبات عاتقة وذات أزهار مختلفة .

وكما تتسع مساحة الأهوار تدريجياً في وقت الارتفاع تقل مساحتها تدريجياً
كذلك في وقت الانخفاض ، وكما سبقت الإشارة تنصرف بعض مياه هور الحار
خلال منافذه الى شط العرب ونحو القرنة ، أما هور الحويزة فإن بعض مياهه
يعود ثانية الى نهر دجلة خلال بعض الجداول التي تصل به جنوب قلعة صالح ،
وهي من الجداول التي حلت في وقت الفيضان قسماً من مياهه الى هذا الهور .
وينصرف بعض آخر منها الى شط العرب خلال منافذ أخرى وأهمها نحة
السويب ، وفي فصل الصيف وفصل الخريف تمثل ظاهرات الأهوار واضحة ،
وتتميز فيها مناطق البرجات (البرك) ، وهنا وهناك تبدو جزر كثيرة مختلفة
الاتساع والارتفاع ، والبعض منها عامر بالسكان والبعض الآخر غير عامر
يستغله السكان في زراعة بعض الغلات ويتخذون القليل منه كقابر لدفن موتاهم
دفناً مؤقتاً حتى يتيسر نقلهم الى النجف أو الى كربلاء ، وعدا الجزر المرتفعة بعض
الارتفاع : تبدو من قاع الأهوار على السطح مناطق وتفصل بعض أجزاء منها
وبين بعض آخر ، كما تتضح بعض الوضوح ضفاف ما لا حصر له من الجداول
كبيرة وصغيرة ، وهي كثيرة الانشعاقات والتعرج ، وتكون مجاريها الدروب
والمسالك التي يتخذها السكان في تنقلهم بين جهة وبين أخرى في داخل الأهوار
وبينها وبين العالم الخارجي وراء حافاتها ، وينمو الغاب والبردى كثيفاً على ضفاف
هذه الجداول ، ويبدو كالأسوار العالية تحجب ما يجري في المجرى الواحد منها
عما وراءه ، كما تحجب عنه أشعة الشمس من جهة الشرق ومن جهة الغرب ، ويكون
المجرى معتماً على الأخص إذا كان الماردى هو النامى على ضفافه ، والماردى هو
عملاق الأهوار ، وهو نوع من الغاب يرتفع الى نحو ٧ مترأ ، وفيما بين ضفاف
بعض الجداول وبين بعضها الآخر توجد أحياناً برجات خالية من الغاب والبردى ،
وتوجد أحياناً أخرى مناطق من الأهوار تنمو فيها أحراش كثيفة منها .

والجائل في مناطق الأهوار يجد المناظر أمامه وما تطبعه في نفسه من أحاسيس متشابهة في جهاتها، فالبرك وما يعلو سطحها من نباتات عالقة، والأهوار وما ينمو فيها من أنجاس الغاب والبردى، وما يتخلل كل ذلك من جداول كثيرة التمرج وتكتف صفاتها أسوار عالية من الغاب الأخضر، وهي المناظر الطبيعية السائدة، والسكون يلف بعض جهاتها أحياناً إلا ما يسمع من همس الغاب عندما تهز نسمة خفيفة أطرافه أو يقف لها سطح الماء عند سيقانه، ولا شيء أعلى من ذلك إلا نقيق الضفادع وأصوات بعض الطيور، أو ضربات بجذاف على سطح الماء أو ضربات ماردي يحرك به واحد من السكان مشجوفه ويوجهه خلال جدول من الجداول، وفي الأهوار تبدو العزلة والوحشة مطبقة أكثر مما هي في الصحراء، ففي الصحراء يكتشف الإنسان ما حوله إلى امتداد قوة بصره، أما في الأهوار فإن مدى هذا الاكتشاف يضيق إلى بضعة أمتار قليلة وأحياناً إلى بضعة أقدام، ومن بين القصب الذي يكتفه تلتصص عيون من حوله وتراقب حركاته؛ وقد يناله من المتلصصين عليه أذى وقد لا يناله، ولكنه يشعر دائماً بحيرة في حبه وبثورة في أعصابه، والسكون الذي يلف مكانه والهمس الخفيف للغاب وهو لا يسكن، يزيد في وحشته وفي تنبيه حسه لكل حركة أخرى تحدث، ويحذره بما قد يحدث به من أخطار لا يعرف من أين تأتيه.

والاقتراب من مراكز العراق في الأهوار له بعض مظاهر، فهنا وهناك يرى بعض الغاب وقد مال وتغير وضعه، وحدثت لجوات فيه ومال بعض منه على بعض آخر، كما يرى الجاموس وقد غاص بعض فيه بحسه في الماء إلا قليلاً، بينما أخذ البعض الآخر في قضم الغرض من سيقان القصب والبردى، ومن بعيد تسمع أصوات تعلو على همس الغاب، وقد يسمع صوت بجرشة (رحى) ويرى دخاناً متصاعداً من التناوير (الافران) التي يحيز فيها الخبز اللازم لكل وجبة من وجبات الأكل، ثم لا يلبث منظر القصب المتكاثف والذي يحجب عن النظر ما وراءه أن ينكشف فجأة عن برجة، أو منطقة من المور قد قطع قصبها وتتضمن بعض الجزر وعليها ترتفع بعض الارتفاعات كأكواخ السكان وهي مصنوعة من القصب.

الناحية البشرية

بعض الظواهر الاجتماعية — السكان وبعض نظمهم الاجتماعية — مراكز الاستقرار — التعليم والحالة الصحية .

يعيش السكان في مناطق الأهوار عيشة قيلية ، وينتسب كل جماعة منهم الى قبيلة معينة ، وفي داخل هور الخويزة وعند حافته تسود قبيلة البو محمد وهي كبيرة العدد ويقدر عدد رجالها بنحو ٣٠ ألف رجل ، ويشغل بعض من أبنائها بالزراعة ويشغل البعض الآخر بترية الجاموس ، ويجوارها تعيش قبائل أخرى أقل منها أهمية مثل السودان والفرطوس والسواعد ، وتكتنف قبيلة بني لام القبائل السابق ذكرها من جهة الشمال والشمال الشرقي ، وهي قبيلة قروية ويقدر عدد المقاتلين من أبنائها في داخل حدود العراق بنحو ٢٥ ألف مقاتل ، ويجينا قسم كبير من سكانها حياة بدوية والباقي منهم حديث الاستقرار ويشغل بالزراعة ، وفي داخل هور الحار وعند حافته يكن عدد كبير من قبائل أخرى ، ومن بينهم تطلق تسمية أهل الجزائر على سكان القسم الواقع منه بين نهر دجلة وبين النهاية الشرقية لبركة الحار وهم يكونون قبائل ، ويكن قسم كبير منهم في الجزر المنتشرة هناك ، وأهمها قبيلة بني أسد وهي تكن في ناحية الجايش ، ومن القبائل الأخرى بني حطيط ، وبني مشرف ، والحسين ، والعبادة ، وعند القرنة تكن قبائل بني مالك ، والشلس وبني منصور ، وعند المداية تسكن قبيلة الإمارة ، وبعض قبائل أخرى تطلق عليها تسمية السيامر (نسبة إلى السومريين) وإن كانت كل قبيلة منها تنسب نفسها الى قبيلة من القبائل العربية المعروفة ، وفيما بين المداية وبين سوق الشيوخ يكن بني خيقان عند الحافة الشمالية لهور الحار ، وهم يكونون مجموعة من القبائل ويشغل معظمهم بالزراعة ، وفي القسم الغربي من هور الحار تكن قبائل المجره في منطقة سوق الشيوخ وهم يكونون مجموعة أخرى من القبائل ، ويكن على جرمة أم نخلة قبائل بني حسن ، كما يكن على جرمة بني سعيد قبائل بني سعيد وقبائل أخرى منها البو خليفة وآل حرب وعبادة وبني مشرف والجويير وآل اسماعيل .

والقبيلة هي أساس الوحدة الاجتماعية لأبنائها ، وهم يعتبرون تقاليدها الموروثة وعاداتها قوانين يجب أن تنفذ مهما كانت النتائج ، ويرون التراخي في ذلك

عاراً ومذلة ، ولكل قبيلة ديرتها الخاصة بها ويعرف أبناءها الواحد منهم الآخر ، ولهم جميعاً حق التنقل في جهاتها على ألا يضر أحدهم بمصالح غيره ، وليس من السهل على ابن قبيلة معينة أن ينتقل من ديرة قبيلته الى ديرة قبيلة أخرى ، فإن الشك في كل غريب عن القبيلة والحذر منه هو الأساس الأول ، والعيون المتلصصة في الليل وفي النهار عند مداخل قرى القبيلة تراقب حركاته وتحاسبه عليها والاعتداء عليه محتمل ، ويكون مؤكداً إذا كان من قبيلة معادية ، والحذر والشك الذي يسود بين سكان الأهوار وعلى الأخص بين القبائل « المظلمة دم » يجعل الواحد منهم لا ينتقل وراء مكنه الا وهو مسلح ، والأسلحة النارية منتشرة هناك ، وهي الهدف الأول لكل من بلغ منهم أشده ، وأسلحتهم الأخرى هي الخنجر والمجوار (عصي غليظة ويثبت عادة في أحد طرفيها قطعة من الحديد أو من القار) والفالة ، والفالة تتكون من عصي من القصب القوي (الماردى) ويبلغ طولها بين ٢-٣ أمتار ويثبت في أحد طرفيها كف من الحديد وله خمسة أصابع أطرافها مدببة ولها سن بارز كسن الشص ، ولا يستغنى ابن الهور في تنقله عن فالة إذا استطاع أن يستغنى عن بعض أسلحته الأخرى ، فيها يصطاد غذاءه من الأسماك كما يصطاد الطيور وبعض الحيوانات الأخرى ، وبها يدافع عن نفسه ويقذفها على عدوه ، وبما لا يستغنى عنه أيضاً في تنقله ، الزناد والمقدحة ، فيها يوقد لفائف تبغ ويوقد النار للتدفئة ويطهى طعامه ويصنع قهوته ، وهو في تنقله خلال ديرة قبيلته عارف لطريقه في الجداول الكثيرة ، وهو أحياناً يضع علامات يرشد بها من سيتبعه ، كما يضعها إذا كان في ديرة أخرى ليعرف بها عند عودته الطريق الذي قدم منه .

وبعض من أبناء القبائل يشتغل بالزراعة أو بتربية الجاموس وغيره من أنواع الحيوانات المنأسة ، وبعض آخر منهم يشتغل بصيد الأسماك وصناعة البوارى وغيرها من بعض الحرف ، وتوجد من بينهم جماعات تودى أعمالاً أخرى ومنهم الحوشية والعيد والملا والمؤمن ، والحوشية يسكنون حول حوش (بيت) الشيخ ، وهم طبقة ممتازة في القبيلة يعتمد الشيخ عليهم ويتباهى بهم عند استقبال ضيوفه ، وهم عدته الأولى في غزوه القبائل الأخرى وفي دفاعه عن قبيلته ، ولهم مخصصات يعطيها لهم من ناتج الأرض ، وللعيد عند الشيخ مكانة خاصة ، فهم حراسه أينما سار ،

وهم كانوا سره ومطعموه الطاعة العمياء ، وعند بعض القبائل يكون فصل
العبد مثل فصل سيده (أى أن الدية التى تعطى عند قتل الشيخ يعطى مثلها عند قتل
عبده) ، والملا له منزلة كبيرة أيضاً ، فهو القارىء للقبيلة والكاتب لها والمحاسب ،
وهو سكرتير الشيخ ورسوله والمتحدث باسمه ، أما المأزمن فإن مكاتبه كبيرة عند
جميع أفراد القبيلة ، لأنه رجل الدين فيها الذى يؤدى لأبنائها جميع ما يحتاجون
إليه من خدمات دينية وشرعية ، وتكون منزلته أعظم إذا كان من البيت النبوى
الكريم ، وهذا هو الغالب .

وسكان الأهوار مستقرون إلا أن قسماً منهم لا يستقر استقراراً دائماً فى مكان
واحد ، فرعاة الجاموس ينتقلون بها داخل الأهوار الى حيث يتوفر الغض
من القصب فى محيط ديرة قبيلتهم ، يقيمون أكواخهم على جزيرة فيها هناك ثم
يلبثون عند ما ينتهى المرعى أن يشيلوا (يرحلوا) الى جهة أخرى يتوفر فيها
قصب غرض آخر ، ورعاة البقر والخير والغنم ينتقلون بها من جهة الى أخرى لترعى
الفضلات المختلفة من حقول الدرة والدخن ، ومن حقول الشلب ، وكذلك
من حقول الدجن (القمح والشعير) ، وزراة الشلب وزراة الدرة ، يتقدمون
عند تقهقر مياه الفيضان فى داخل منطقة الأهوار ويتأخرون عند تقدمها منها
الى حيث تتوفر المساطق الصالحة لزراعة هذه الغلات ، كما أن بعضاً من زراة
الدجن ينتقلون الى الأراضى الجديدة التى يمكن زراعتها بها ، وهى الأراضى
التي لم تعد صالحة لزراعة الشلب أو الدرة ، أما المستقرون استقراراً دائماً فهم
البعض الآخر من زراة الدجن الذين لا تتأثر أراضهم بتقدم مياه الفيضان
أو تقهقرها لأنها تعتمد فى زراعتها على رفع المياه بالآلات .

وتوجد مراكز الاستقرار الدائم فى بعض المساطق التى تعلو فوق مستوى
الماء فى داخل الأهوار وعند حافاتهما ، وهى تقوم عادة على الأجزاء المرتفعة
من ضفاف الجداول الكبيرة والأنهار ، وتمثل أسواقاً لسكان هذه الجداول
ولسكان ما يتصل بها من جداول أخرى ومناطق فى داخل الأهوار ، وعن طريقها
يتصل هؤلاء السكان بالعالم الخارجى وتنقل اليهم بعض مؤثراته ، ومن أهم مناطق
الاستقرار الدائم هناك القرنة ، وهى تقع عند بدء مجرى شط العرب ، وقلمة صالح

وهي تقع على الجانب الأيسر لنهر دجلة ، ومسببة وهي تقع على الكحلاء وعند الزاوية التي يكونها جدول المسيحي مع هذه القناة ، وسوق الشيوخ وهي تقع على الجانب الأيمن لنهر الفرات وعند الطرف الشمالي الغربي لهو الحمار ، وفي داخل هذا المور وعلى الجانب الأيمن للقسم الأدنى من المجرى القديم لنهر الفرات فيه توجد المداينة والجبايش ، وتتفوق أهمية بعض هذه المراكز على البعض الآخر بسبب تفوقها في عامل أو أكثر من العوامل التي تساعد على نموها .

وتشابه هذه المراكز العمرانية في ظاهرة أن يوتها مصنوعة من الكابوق (الطوب المحروق) ، وهي ظاهرة يستلزمها كون الأرض مشبعة بالرطوبة ، وذلك باستثناء بلدة الجبايش فإن معظم يوتها مصنوعة من القصب ، ويرجع سبب ذلك إلى أن الأرض القائمة عليها معرضة لطغيان المياه عليها في وقت الفيضان ، وبسبب ضيق الأراضي التي يمكن إقامة البيوت عليها حتى عمد بعض سكانها إلى إقامة جزر صناعية ورفضها فوق سطح الماء بإلقاء طبقات من الطين والغاب والبردى بعضها فوق بعض ثم كبسها ، ويقال أن تسمية الجبايش هي في الأصل الكبائس نسبة إلى هذه العملية ، والكبية ، أو الجزيرة الصناعية ، قد لا تستطيع مقاومة ضغط المياه عليها في وقت الفيضان فتقتلع من جذورها ، وقد عالج السكان ذلك بثبيتها بأوتاد ، ويزرع بعض أشجار النخيل فيها حتى تمتد الجذور وتثبتها بأرض القاع التي رفعت عليها ، وتبدو بلدة الجبايش بسبب ذلك كغابة من النخيل نامية في وسط الأهوار .

والبيوت المصنوعة من القصب هي المظهر السائد لماركز العراق الأخرى في مناطق الأهوار ، وهي متشابهة في مادة بنائها وفي مظهرها العام ، ولا يختلف البعض منها عن البعض الآخر إلا قليلاً من ناحية الارتفاع أو من ناحية الاتساع فهي كلها مشيدة من حزم من الغاب ، ثبتت قوائمها في الأرض وثبتت أطرافها فبال ما يوجد منها في جانب على ما يوجد منها في الجانب الآخر مكونة أقواساً ، ويحرص السكان دائماً على أن يكون عدد هذه الأقواس فردياً سواء أكانت في يوتهم أم كانت في مضافهم ، والبيت بعد أن يكمل وضع أقواسه وتثبيتها بحبال من القصب الملوي تغطي سقفه والأجزاء العليا من جدرانه بنظام من البوارى

(الحصر المصنوعة من الغاب) ، أما الأجزاء السفلى منه فتغطى بنوع آخر من القصب المجدول على نحو متشابه ، وفي فصل الشتاء يلحف (يكسى) البيت بنظام آخر من البوارى ، وحين يشتد البرد يقيم بعض رعاة الجاموس حول بيوتهم سياجا من القصب والطين القماسا لزيادة التدفئة وإضعافاً لحدة الرياح الباردة ، أما زراع الشلب فإنهم ينطون بيوتهم بنظام سميك من قش ، والبيت بعد أن يتم تشييده يبدو شبه نفق مصنوع من الغاب ، وأحد نهايتيه مغلقة ، أما نهايته الأخرى فتوجد فيها فتحة صغيرة تؤدي وظيفة الباب ووظيفة النافذة ، وأرض البيت تفرش بالبردى وتغطى بنظام من البوارى أيضاً ، وفي وقت الفيضان عند ما يرتفع مستوى المياه ويبدو بعضها مترشحا فيها يرفعها السكان بوضع كيات من الطين ومن الغاب والبردى عليها ، ويكرر ذلك كلما دعت الضرورة ، وبسبب ذلك ارتفعت أماكن البيوت فوق المستوى العام القديم لأرض القرية ، وبدا كل بيت فيها كما لو كان قائما وحده على تل صغير ، وفي وقت الفيضان تغمر المياه المنخفضات الواقعة بينها ويكون الانتقال بين الواحد منها وبين الآخر بواسطة المشاحيف .

والصريقة نوع آخر من البيوت المصنوعة من القصب ، إلا أنها تمتاز عنها بالتأنيق في صانعائها ، كما تختلف عنها بعض الاختلاف في هندسة بنائها ، ويشيدها الأثرياء من السكان لجلساتهم الخاصة ، أما المضيف فيدور بين بيوت القرية كعلاق بين أقزام ، وهو مثلها مصنوع من أقواس من القصب ومنظطة بالبوارى (الحصر) إلا أن تشييده يتطلب كثيراً من الجهد ، والاعتناء ، وذلك لأنه عنوان القرية وامتدى رجالها ، وفيه يستقبل ضيوفها ، كما أن فيه يجلس الشيخ ورؤساء الأسر يتذكرون في ماضيهم وفي حاضرهم ويفصلون في الخصومات ويوزعون العدالة بين الأفراد ، وهم في أثناء ذلك يشربون القهوة المرة مرات عديدة ، ويستهلكون أعداداً كبيرة من لفائف التبغ ، والمضيف ملك عام للقرية ، فقد يموت الشيخ أو يغلب على أمره ويقوم آخر مقامه ، ولكنه يبقى كما هو يجلس فيه الشيخ الحديد كما كان يجلس الشيخ السابق ، وأرضية المضيف تفرش بالحصر أيضاً ، ولكن فوقها عند صدره وعند جوانبه تمد بسط وسجاجيد البعض منها صناعة عربية والبعض الآخر صناعة إيرانية ، وفوقها تطرح بعض الحشايا وتوضع بعض الوسائد وقد اتخذت أوجهها من أقشة حريرية في الغالب ، وفي وسط المضيف وعلى مقربة

من مدخله يوجد الموقد ، وقل أن تخدم ناره ، وفيه توضع مصفوفة أو أنى صناعة القهوة وكلها ذات مصبات معقوفة ، ويسمى أكبرها بالقمقم وهو يسع نحو أربعة جالونات من الماء ، وتليه في السعة آنية أخرى تعرف باسم التلقامة ، وهي تسع نحو جالون واحد ، أما الأواني الأصغر سعة من ذلك فتعرف باسم الدلات (مفردها دلة) وهي مختلفة الحجم ، وفي بعض المضاييف التي زرتها كان في الموقد قفلاً واحداً وتلقامتين واثني عشر دلة .

وتقوم بعض القرى المصنوع بيوتها من القصب ، كالقرى الأخرى المصنوع بيوتها من الكابوق (الطوب المحروق) على ضفاف المجارى المائية وعلى المناطق المرتفعة عند حافات الأهوار ، وتقوم البعض الأخرى منها على الجزر في داخل الأهوار ، وتمتد بيوت القرى القائمة على ضفاف الجداول في صفين طويلين على جانبي المجرى ، ويفتح أحدهما أبوابه ناحية بينما يعطيه الآخر ظهره ، ويقول بعض السكان سبباً لذلك بأن بيوتهم ينبغي أن تواجه مكة ، أما القرى القائمة فوق الجزر فإنها مزودة بعض الازدحام ولا نظام كبير فيها ، وفي بعض من هذه القرى نجد قلاعاً قائمة لفرض الدفاع ، وهي بناء من الطين ومربع الشكل غالباً ، ويبلغ طول كل ضلع من أضلاعه نحو ٢٠ - ٣٠ متراً ، وجدرانها سميكه وتتضمن فتحات في أعلاها المشرف على السطح ، ولكل قلعة باب ضيق ومنخفض ويصطر الداخل منه أن ينحني كثيراً ، ويصل بين أرض القلعة وبين سطحها سلم غير ثابت مصنوع من الغاب الصلب ويمكن رفعه إلى السطح عند الضرورة .

وتتوج مناطق الأهوار في بعض أوقات السنة بأفواج من الذباب ومن البعوض ، وبما لا حصر له من أنواع الحشرات الأخرى التي تعيش في الطين وعلى سطح المياه الراكدة ، وعلى ميقان النباتات وأوراقها ، كما توجد فيها بعض أمراض متوطنة ، وأكثرها انتشاراً الملاريا والبلهارسيا والانكاوستوما ، وفي منطقة الجوزة بسبب وقوعها بعيدة عن المسالك الطبيعية للاتصالات وضعف الرقابة عليها من جانب العراق ومن جانب إيران ، تنتشر بعض أمراض أخرى ومن بينها الجزام ، وقد اهتمت الحكومة العراقية بهذا المرض وأقامت لمكافحة مصحاً في العمارة ، كما اهتمت أيضاً بالأمراض الأخرى وأنشأت لها مستوصفات

في بعض القرى ، وقد أبدت كذلك اهتماماً بالتعليم وأنشأت هناك بعض المدارس وزودتها بمشايخ لتفعل التلاميذ ، ومعظم مستوصفات الحكومة ومدارسها مشيدة من الغاب ، ويبدو اهتمام الحكومة بالتعليم وبالصحة في هور الحمار أكثر وضوحاً منه في هور الخويزة .

ومع أن القذارة البادية في القرى والأمراض المنتشرة تهدد طريق النصر المبوت ، إلا أن الحياة هناك لا تزال هي المنتصرة ، ويبدو السكان في مستوى جيد لا بأس به ، ولا شك أن هناك تتمثل نظرية البقاء للأصلح بصورة واضحة فنسبة الرفيات في الأطفال عالية جداً ، ولكن الطفل منهم إذا عاش وبلغ أشده ازداد على مرور الزمن قوة وصلابة ، ويقنع الرجال تحت حرارة الصيف المحرقة وتحت برودة الشتاء القاسية ببشت واحد (عباءة خفيفة من الصوف وغالباً ذات لون أحمر) قائم ومحتزمين بحزام حول وسطهم ، وأحياناً يرون بلا بشوت ، كما ترى الأطفال عرايا ، فقد رأيت ، وكان الوقت في أوائل شهر فبراير وهو من أشد شهور الشتاء برودة في العراق ، بعض أطفال قرية الشدة في هور الخويزة مصليين (عرايا) تماماً كما رأيت بعض الرجال بأجسامهم العارية ذات اللون البرزقي ، يبدون مكترزي العضلات ، وكانت أسنانهم بيضاء لامعة وبعضهم قد جدل شعره الكث في صفيحتين ، وهم سباحون مرة وقادرون على مكابدة أشد المتاعب إلا أنهم مع ذلك يبدون على درجة كبيرة من الكسل إذا لم يوجد أمامهم عمل على جانب كبير من الضرورة يستلزم نشاطهم .

والمرأة هناك تتمتع بنية قوية أيضاً ، وتبدو الفتاة بعيداً الواسعتين المكحلتيين وبخضلة من الشعر الفاحم على جبينها ذات ملاحه وجمال ، وهي على العكس من الرجل تلبس ملابس طويلة فضفاضة يغطي جسمها من الرقبة وتهدل عليه حتى تخرج ذيلها على الأرض من الخلف ، أما من الأمام فإن الذيل يرتفع قليلاً ليكشف عن حجل (خلخال) من الفضة البراقة ملفف فوق قدميها ، أما المعانز منهم فيجلسن القرضاء على أبواب الأكواخ يغزلن بعض الصوف أو يحرقن (يطحن) بعض الحبوب ، وهن لابسات بشوتاً سوداء أو قاتمة ، وقد عصبن وورسهن بعصابة كبيرة من القماش الأسود يعرف باسم (الشيلة) ، وعلى حافة

البرك والأهوار ترى بعض النساء الصغيرات يغسلن بعض الملابس وبعض أوعية الطعام والحليب والروبة (اللبن الرايب) ، أو يملأن مشخة (قدر كبير من النحاس — دست) بالماء للأغراض المنزلية ، ويجوارهن يرى صف من المشاحيف مختلفة الأحجام ، كما يرى بعض الأطفال عراة يلعبون في الماء ، ويجوار كل كوخ وعلى مسافة قصيرة منه ، يوجد تنور (فرن) تجلس أمامه ربة تحضر الخبز اللازم لأسرتها في كل وجبة من وجبات الطعام ، وتوقده بالجاف من نباتات المستنقعات وبأقراص من روث الماشية ترى موضوعة صفوفاً على جذران الأكواخ لتجففها حرارة الشمس .

بعض الظاهرات الاقتصادية

تربية الجاموس وغيرها من بعض الحيوان — صيد الأسماك والطيور وصناعة البوارى — الزراعة — التسويق — والتوجيه الجغرافى لثروات السكان .

تقدم الأهوار لسكانها بعض الثروات ، ففيها القصب والبردى ونباتات أخرى ، ومنها ما يصنعون منه أكوأخهم ويلسجون فراشهم وبوقدون نيرانهم ، ومنها ما تلتج منه البوارى واللال وتقتل الحبال ، ومنها ما يتغذى به الجاموس ، ومن براعم البردى يصنع الخريط ويؤكل كدادة حنطة وتعالج به بعض الأمراض ، وفيه السمك وأفرأ والطيور البرية كثيرة ، وهما يكونان مع اللبن الحائر من الجاموس جانباً مهماً في غذائهم ، ومن ريش الطيور أيضاً تحشى بعض الوسائد . وتوجد فيه عدا ذلك بعض حيوانات أخرى كالسلاحف والخنازير البرية وكذلك الكوسج (كلب البر) ، وجلده ثمين القيمة ، وما يفيض عن حاجاتهم من هذه الثروات يبيعونه ويشترون بشفه مطالب أخرى ، فهم يجمعون بعض الغاب والبردى ويبيعونه حطباً للوقود ، والبردى يستخدم على الأخص بكثرة في قائن الكابوق وهي التى يرى عدد كبير منها على طريق ضفة نهر دجلة بين القرنة وبين العمارة . كما أن من بعض القصب تصنع البوارى (الحصر المصنوعة من الغاب) . وهي تباع بكميات كبيرة وتشتمل لأغراض شتى في أنحاء العراق . وهم يبيعون كذلك ما يفيض عن حاجاتهم من مستخرجات الألبان ومن الأسماك ومن جلود الحيوان وريش الطيور ويشترون بشفه حاجاتهم ، وهي بسيطة ، أو يستبدلونها بها .



جبلوس الممدان



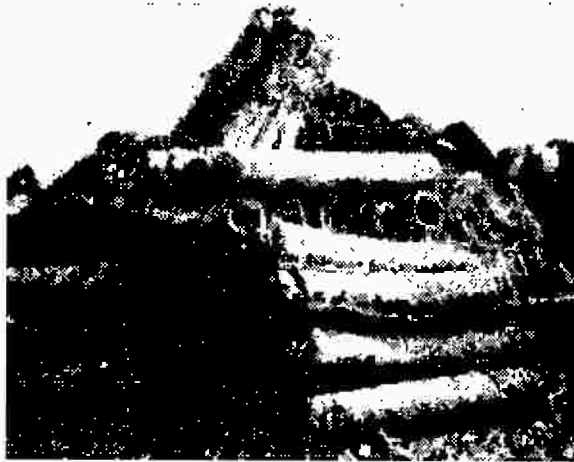
طريقة وصناعة البواري بالسكيايس

وتربية الجاموس حرفة أساسية لمجاعة من سكان الأهوار تطلق عليهم تسمية المعدان ؛ ولكل منهم حيواناته الخاصة منها ، والمعدان هم السكان الحقيقيون للأهوار ويعيشون على جزر في داخلها ، بعيدين بدرجة كبيرة عن مؤثرات العالم الخارجى . وهم مستقرون ويعيشون في أكواخ من القصب ، ولكنهم يتنقلون من جزيرة الى أخرى في داخل الأهوار وضمن حدود ديرتهم للبحث عن مناطق العنجر (الغض من الغاب) لرعى حيواناتهم ، ويكثر تنقلهم في فصل الشتاء على الأخص لأنه الوقت الذى يحف الغاب فيه . وهم في تنقلهم يحرقون الغاب الجاف في المناطق التى يغادرونها ليساعدوا النبت الجديد على سرعة النمو . والغاب المتفحم من الحريق يجمعونه ويبيعونه وقدراً وعلى الأخص للصبه المتخصصون في صناعة الذهب والفضة وطلائهما بالمينا ، ولبن الجاموس عند حلبه يسمونه الحليب أما اللبن الحائر فيسمونه اللبن . وبعض الحليب يصنعون منه القير (كالفشدة التى تباع في محلات الألبان) وبعض منه تصنع منه الروبة (اللبن الرايب) أما الباقي وهو القسم الأكبر فيصنع منه الدهن (الزبدة) . والقير والروبة واللبن المتخلف من صناعة الزبدة يستهلك محلياً ، ولكن الزبدة تجمع يربماً ويضاف البعض منها الى البعض الآخر حتى يحين وقت بيعها . ولا يتطلب رعى الجاموس منهم مشقة كبيرة لأنهم يطلقونه في الغاب المجاور ليرعى ويقومون بعض الصية لحراسته ، والجاموس يعرف أصحابه ويستجيب لندائهم عليه كما يعرف أن يدافع عن نفسه ضد الغرباء ، وبسبب ذلك توفر لرعاة الجاموس وقت ، وقد استغلوه في بعض حرف أخرى كصناعة البوارى وصيد الأسماك والطيور وبعض الحيوانات الأخرى .

وصناعة البوارى هي الحرفة الرئيسية الثانية للمعدان ، ويقوم النساء بها غالباً ، وهى تصنع من الغاب ، فبعد قطعه من أما كنه ونقله إلى القرى ينظف من قشوره ، ويشق بسكين يسمى (المشقة) ويترك بعض الوقت ليجف ، وبعد جفافه يبدق بمدق من الخشب حتى تتم أليافه ثم يوضع في الماء مدة حتى تلين هذه الألياف وتصبح صالحة لصناعة البوارى بطريقة مشابهة للطريقة التى تصنع بها الحصر في الريف المصرى .



مقنن انجمن وای وای



انجمن وای (الحضر)
أعلام المدان البيع

والأسماك تشترك في الغذاء اليومي لأسر المعدان، ويشوم بصيدها يومياً واحد أو أكثر من أبناء كل أسرة إلا أن هناك جماعات من بينهم تطلق عليهم تسمية البرابرة في بعض الجهات يتخذون صيد الأسماك حرفة أساسية لهم . والأهوار لوفرة مراعيها وبطء حركة المياه فيها وتضمنها غثاى كثيرة بين جذور الغاب والبردى بيئة صالحة لنمو الأسماك وتكاثرها . وهي تكون كثيرة على الأخص في فصل الشتاء وفي فصل الخريف . ويتفق هذا مع مصلحة الصيادين لأنه لا تتوفر لديهم وسائل حفظ الأسماك بعض الوقت في الفصول الحارة من السنة . وتقل في فصل الربيع الأسماك الكبيرة لأن معظم البالغ منها يصعد في الأنهار إلى حيث يجد الأماكن الملائمة لوضع بيضه وتلقيحه . أما في فصل الصيف فتقل الأسماك بصفة عامة لأنه فصل الانخفاض في مستوى المياه ، فترتفع حرارتها كثيراً ويقل وجود الكسوجين فيها مما يضطر معظم السمك في الأهوار إلى الهجرة دون فارق بين البالغ منها وبين غير البالغ ، صاعدة في الأنهار مرة أخرى نحو الشمال ، وللمقابلة هذا النقص الكبير في الأسماك في هذه الأوقات من السنة ، لجأ السكان إلى تخفيف بعض منها في وقت وفرتها ، وتخليجه وحفظه ، والبز هو أكبر أسماك الأهوار حجماً ، أما أغلاها ثمناً فهو الشبوط والبنى ثم البطان ، وهناك أسماك أخرى كثيرة ولكنها لا تؤكل ، ويعتقد الشيعة ومنهم معظم سكان الأهوار بنجاستها ، وهي الأسماك التي لا حراشف لها ومن أنواعها الجري وأبو الزمير .

ولصيد الأسماك عدة طرق ، وصيدها بالشباك يشبه بدرجة كبيرة ما يمارسه الصيادون المصريون ، وصيدها بالزهر ، وهو نوع من المواد السامة يخلطه الصيادون ببعض الطحين (الدقيق) أو لب البردى أو بعض الحشرات ، يشبه كذلك ما هو معروف في بعض جهات مصر ، ولكن صيدها بالقاللة طريقة خاصة بهم ولهم

(١) عن الأسماك في مياه العراق يوجد قيد ويمتري بلايوف عدة مقالات في مجلة الزراعة العراقية ، في الإعداد الآتية :

١٩٤٧ : الجزء الأول - المجلد الثاني من ٧٦ - ٩١ ، الجزء الثاني من المجلد الثاني

من ٢٤٥ - ٢٥٢ ، الجزء الثالث من المجلد الثاني من ٣٧٦ - ٣٨٤

١٩٤٨ : الجزء الأول من المجلد الثالث من ٧٢ - ٧٩ ، الجزء الثاني من المجلد الثالث

من ٢٠٧ - ٢١٥

١٩٤٩ : الجزء الأول من المجلد الرابع من ٦٢ - ٦٦

فيها مهارة ، والقالة قد سبق وصفها ، والصيد يتبع في الصيد بها ثلاث طرق ، وتعرف الأولى منها بالصيد (على العمية) بمعنى أن الصياد يصطاد بها على غير هدى في المناطق التي يظن أن السمك محتبئ فيها ، وتعرف الثانية بالصيد على (الرؤية) بمعنى أن الصياد يقف في المياه الصافية ويضرب بها السمكة التي يراها ، وهي تكون على الأخص في الأوقات التي تحدث فيها هجرة الأسماك صاعدة في الأنهار أو نازلة فيها ، وتعرف الأخيرة (بالضوئية) وهي تحدث في الليل ، ويقف الصياد ممسكاً بشعلة وموجهاً ضوءها نحو الماء ، والسمك كالقراش يجتذبه الضوء . وفي أوائل الصيف عندما ينخفض مستوى الماء في الأهوار ويتخلف بعض منها في المنخفضات ، يجد الأطفال فيها كيات كبيرة من الأسماك الصغيرة ويصطادونها ببشوت أهلهم أو ببعض الخرق ، ويبيعونها لبعض الفلاحين عند حافة الأهوار .

وتقابل محترفي صيد الأسماك مشكلة نقلها إلى الأسواق الكبيرة خارج حدود الأهوار ، وكذلك مشكلة حفظها حتى يأتي المتعهدون إليهم لنقلها إلى هذه الأسواق ، على أنها ليست مشكلة عريضة من بعض النواحي ، لأن السمك لا يتوفر لهم إلا في فصل البرودة ، وهم أيضاً يمارسون لحفظه بعض الوقت عملية هدفهم إليها الخبرة ، وتعرف باسم عملية التجويف ، فهم يشقون السمكة من ظهرها ويخرجون أمعاءها مع الاحتراس من الأضرار بجلدة البطن ، ثم يدلكون ظهرها ببعض الملح ويلتقونها في قاع بلم (زورق شراعى صغير) ، وتكرر هذه العملية في كل الأسماك المصادة ، ويمكن حفظ السمك بهذه الطريقة مدة تتراوح بين ٣ - ٥ أيام ، وعندما تتوفر حولة البلم يبحر إلى العمارة أو القرية أو سوق الشيوخ أو قلعة صالح أو غيرها من الأسواق المحلية للأسماك ، حيث تأتي سيارات معدة لنقله إلى بغداد والبصرة وغيرها من المراكز الكبيرة للعمران في العراق .

وللتطور البرية مورد آخر للرزق لدى سكان الأهوار ، وبعض منها متوطن هناك ، ولكن الكثير منها يهاجر إليهم في فصل الشتاء ، ومن أنواعها الخضيرى والجوشر ودجاج الماء والزجاجي والحزاف والوردة ، وهي تتغذى في النهار على الأسماك وترى منها أعداد كبيرة على سطح الماء ، أما في الليل فتهاجر إلى حقول الثلب والذرة والدجن (القمح والشعير) وتتغذى من بذورها

ومن نباتاتها الصغيرة ، وهي تصاد بالبنادق وبالشباك ، وصيدها بالشباك يشبه ما هو معروف عندنا في القسم الشمالي من الدلتا باسم اللبدة ، وبعض الصيادين يلقي بعض القرع الأصفر على سطح الماء ويلبس على رأسه واحدة منها ، حتى إذا أمنت إليه الطيور وحطت من حوله أمسك بالواحدة منها من رجلها وسحبها تحت سطح الماء وذبحها بخنجره ، وبعض الطيور المصادة تؤكل عالياً وبعضها الآخر يجمع ويباع في الأسواق ، وهناك أنواع من الطيور لا تؤكل ولكن يؤخذ ريشها كما يؤخذ ريش الطيور الأخرى وتحشى الوسائد ببعضه ويباع البعض الآخر . ومن الحيوانات الأخرى للصيد في منطقة الأهوار ، الكوسج (كلب الماء) وهو يعاد بالقالة ويباع جلده وهو ثمين ، والخنازير البرية كثيرة وهي تصاد بالأسلحة النارية والقالة أيضاً كما تصاد بوضع غابة بحوكة في دبرها حتى يمتلئ جوفها بالماء وتعجز حركتها ، ويؤخذ جلدها ويباع كما يباع لحمها للبعض من المسيحيين .

وعند حافة الأهوار توجد جماعة أخرى ، وهم يشبهون المعدان في حياتهم ويشبهون الزرايع في بعض آخر ، فهم يربون الجاموس وبحواره يربون البقر والحير وبعض الغنم والماعز ، كما يشاركون المعدان في حرفهم الأخرى ، وبجانبها يزرعون الشلب والقررة البيضاء والدخن ، وصلاتهم بالمعدان وثيقة فهم الذين يمولونهم بحاجياتهم من غلات هذه المزروعات ، ويوجد وراءهم بعيداً بعض البعد من حافة الأهوار زرايع الدجن (القمح والسمير) ، وزرايع كل غلة من هذه الغلات لا ينافسون غيرهم في زراعة الغلات الأخرى ، ويقول الشيخ عباس محمد العربي من شيوخ البر محمد ، إن الواحد منهم لو أرغم على زراعة غلة أخرى ينهزم (يهرب) ، لأنه يعتبر زراعته إلهة معينة وراثة وتقليداً .

وتعتبر تربية البقر والحير وبعض الحيوانات الأخرى عند سكان حافات الأهوار حرفة مساعدة للزراعة ، وتتغذى هذه الحيوانات على الجصيل (فضلات المزروعات) وعلى الحشائش والأعشاب النامية عند حافات الأهوار والجاري المائية ، وفي الأراضي الأخرى غير المزروعة ، وتربية البقر والحير ضرورية للسكان ، لأن هذه الأنواع من الحيوانات ، وليس الجاموس ، هي التي تستخدم في حوس غلاتهم الزراعية بعد حصادها ، وهي كذلك التي تستخدم في كراب

(حرث) الأرض عند إعدادها للزراعة ، وتربية البقر مريحة لأن حليب البقر ومستخرجاته هو المفضل عند كافة العراقيين على حليب الجاموس ومستخرجاته ، على أن الملاحظ أن معظم البقر هناك ملك للشيوخ ، وتستخدم ألبانه على الأخص لدى مطالبهم المنزلية ومطالب ضيافتهم ، ولمعظم البقر سنم في الجزء الخلفي من رقبة ويشبه البقر المعروف في الهند ، أما الحير فيها ما هو صغير الحجم ومنها ما هو كبير ، ويسمى الكبير منها بالحساوي نسبة إلى مقاطعة الأحساء السعودية على ساحل الخليج الفارسي ، وفي بعض المناطق عند حافة الأهوار ، ترى أحياناً وعلى الأخص في فصل الصيف ، قطعان أخرى من الغنم والمعر يرعاها رعاة آخرون من البدو مهاجرون من الصحراء ، ويتميزون بنحيامهم المصنوعة من الصوف ، ومن الظاهرات التي يمكن لمسها ، أنه بينما يكثر وجود الكلاب بين الرعاة عند حافة الأهوار ، يندر وجودها بين رعاة الجاموس في داخلها ، وهذا يرجع إلى أن ظروف الحياة في داخل الأهوار غير ملائمة لها .

والشلب (الأرز) يزرع غالباً في المناطق المنصورة بالمياه إلى عمق معين (١) ، وبعض منه يزرع في أراضي أخرى ، منها يروى سبياً (بالراحة) ومنها ما يروى بالآلات الرافعة ، ولذلك تحدث زراعة خلال فترة طويلة ، وبعض منها يكون مبكراً وبعض آخر يكون متأخراً ، وتعرف الزراعة التي تحدث مبكراً باسم الزراعة الهرفية ، كما تعرف التي تحدث متأخرة باسم الألفية ، والزراعة الهرفية تمارس ابتداء من مارت (مارس) وتستمر إلى أواخر مايس (مايو) ، أما الزراعة الألفية فإنها تمارس من أول حزيران (يونيو) وتستمر إلى أواخر تموز (يوليو) ، وأهم مناطق زراعة الشلب توجد عند زرائب (نهايات) الجداول التي تتحمل إلى الأهوار مياه الفيضان المحملة بالدهلة (الغرين) ، وكذلك في بعض مناطق أخرى ملائمة يقيم الزراع حولها سداداً بوضع خاص ويرمون من ورائها إلى أضاف حركة المياه فيها حتى يتسبب عليها أكبر كمية من الرواسب الفيضية ، وهي المناطق التي تزرع شلباً تكون عادة منخفضة بالقدر الذي يمكن معه ريها سبياً

(١) عن زراعة الشلب في منطقة الأهوار راجع السيد مجي فتاح ، مقالته بعنوان « زراعة الشلب في لواء العمارة » ص ٤٥٥ - ٦٦٤ في مجلة الزراعة العراقية ، الجزء الرابع - المجلد الثاني لسنة ١٩٤٧ ؛ وراجع مقالة أخرى للسيد ابراهيم بعنوان « زراعة الأرز في لواء المنتك » ص ٢٩٥ - ٣٠٠ في مجلة الزراعة العراقية ، الجزء الثالث - المجلد الثالث لسنة ١٩٤٨

بعد انحسار مياه الفيضان عنها، كما أنها تكون مرتفعة بالقدر الذي لا يبقها مغمورة بالمياه مدة أكثر مما ينبغي، وحقول الشلب توجد أيضاً في كل المناطق التي يمكن ريتها سبياً ويمكن صرفها، كما توجد في بعض مناطق أخرى وتروى بالآلات، وهو يزرع في بعض حقوله ثاراً وفي بعضها الآخر شتالاً، وعند نضجه يحصد بالمناجل، ويبدأ وقف الحصد من أول تموز (يوليو) ويستمر إلى أواخر تشرين الثاني (نوفمبر)، ثم ينقل إلى يابز (أجران) ويدوس البقر والحير على سيقانه لاستخلاص الحبوب، وتحدث هذه العملية في الصباح وفي الماء، ثم يجمع حبوبه وتوضع في قفف ضخمة من القصب المجدول مكوة بطبقة من الطين وترك على ضفاف الجداول حتى يأتي التجار لشراء ما هو معروض للبيع منها، وأكثر أنواع الشلب المزروع انتشاراً يسمى نعيمة أما أجودها فيسمى عنبر، ومن المعروف أن حبوب الشلب بعد أن تزرع عنها قشورها وتصبح صالحة لصنع الطعام منها، تسمى تبن .

والأراضي التي تغمرها مياه الفيضان ثم تحرر عنها بعد انتهاء وقته يسميها الزراع أرض النطياب، وهي تتضمن أهم حقول الشلب، وتشاركه الذرة البيضاء في بعض منها، إلا أنها تختلف عنه في أنها لا تزرع إلا في الأراضي التي انحصرت عنها المياه إلا قليلاً، حيث ترك لتنمو على الرطوبة الباطنية دون حاجة إلى الري، ولهذا تتركز زراعتها في الأراضي التي لا يمكن ريتها سبياً مثل الجزرات التي توجد عند ضفاف المجارى المائية وفي بعض المناطق على هذه الضفاف، وهي مثل الأرز لها زراعة هرفية تبدأ من مايس (مايو) وفيه تبذر الحبوب في الدايات (المشاتل) ومنها تنقل إلى الحقول خلال شهر حزيران (يونيو) ولها زراعة أقلية تمارس بعد ذلك، ويبدأ وقف حصاد الذرة من آب (أغسطس) ويستمر إلى تشرين الثاني (نوفمبر)، وهي لا تحتاج إلى جهود كبيرة كما يتطلب الشلب، ولذلك يجد زراعتها وقتاً يستثمرونه في نواحي أخرى، وتعتبر غلة ثانوية بالنسبة له، كما أنها تزرع عند حافة الأهوار في المناطق التي لا تصلح لزراعته، وتجد سوقها الراجح عند رعاية الجاموس، كما أن عليها وعلى فضلاتها يربي زراع الشلب قطعاناً كبيرة من البقر ومن الحير ومن الغنم، وقد سبقت الإشارة إلى أهمية البقر والحير لدى زراع الشلب بعد حصاده .

والأراضي الحديثة التي تعلو فوق مستوى الفيضان وتضاف سنوياً إلى الأراضي العراقية تسمى أرض الطلاع ، وهي أيضاً تزرع شلماً مادام في الإمكان ربيها سيما من الجداول ، وهي أرض التيطاب يقبل عليها الزراع لخصوبتها الكبيرة ولسهولة ربيها وصرفها ، وكذلك لأن الوقت لا يتوفر للحكومة لمسحها وفرض الضرائب عليها ، وأرض الطلاع إذا مضى وقت عليها وابتعدت كثيراً عن المدي الذي تصل إليه مياه الفيضان عند حافة الهور تسمى بالأرض الرباث ، ويجد زراع الشلب أن خصوبتها ليست بالدرجة اللازمة ، وأن زراعتها تحتاج إلى جهود كبيرة ، وقد يملونها قلف وتنمو فيها الحشائش الضارة والأعشاب ، ولا يزرعون منها إلا ما يمكن ربيها سيما أو تتوفر الآلات الرافعة لريها ، وهم لكي يروونها سيما يقيمون (سكورا) وتسمى أيضاً (حولا) من القصب والبردي والطين في مجرى الجداول لترتفع المياه أمامها وتغذي الحرات (الجداول الحقلية) ، ولا ينبغي أن تقام السكور في مجارى الجداول الملاحية ، كما ينبغي ألا تسبب ضرراً لمصالح أصحاب الحقول التي تقع على امتداداتها السفلى للجداول ، وهناك بعض حقول يرونها الزراع سيما اعتماداً على قوة الرياح ، وهي توجد عادة في جزيرة تعلو قليلاً عن مستوى المياه في منخفضات تكتنفها ، والزراع يشقون قنوات فيها تتصل بهذه المنخفضات فإذا هبت الرياح من جهة واحدة منها دفعت سطح الماء فيها ورفعته إلى القنوات فتسقى الحقول ثم تعود إليها ثانية بعد أن يتوقف هبوب الرياح من جهتها ، تروى الحقول بهذه الطريقة من المنخفض الآخر إذا تغير هبوب الرياح وهبت من جهته ، وتسمى أراضي الرباث التي تزرع شلماً على الري بالآلات الرافعة تسمى أرض البرع أو البرعوع ، ومع أنها تعتبر من أقل الأراضي الصالحة لزراعة الشلب خصوبة ومن أكثرها تكاليفاً ، إلا أن البعض من الزراع يقبل عليها بسبب ضمان توفر المياه لريها مهما اختلفت مناسيب المياه في الجداول ، وهي لا تلبث عندما يزداد ضعف خصوبتها أن تنقل إلى الأراضي التي تزرع بالدجن (القمح والشعير) .

ومن المشاهد أن الزراعة في الأهوار وعند حافاتها تكتنفها صعوبات جمة ، وذلك لأنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمياه الفيضان وهي لا تأتي منتظمة كياه فيضان النيل مثلاً ، وإنما تأتي في نوبات بين فترة وبين أخرى ، والشلب مثلاً يزرع

في الأراضي التي تغمرها مياه الفيضان بعمق يتراوح بين ٢٥ - ٥٠ سم ، وقد يزرع عند هذا العمق ثم لا يلبث مستوى المياه أن ينخفض عنه كثيراً أو يزيد عنه فيسبب عن ذلك ضرر للزرع ، والذرة تزرع في الأراضي التي تغمرها مياه الفيضان بعمق نحو ٣ سنتيمترات ، ولكنها قد تزرع ثم تأتي نوبة من نوبات الفيضان العالي تغمرها مدة طويلة فوق هذا القدر المناسب ، والجداول والقنوات الحقلية التي يحفرها الزارع لرى حقولهم سيما ينبغي أن يحدد حفرها سنوياً ، لأن مياه الفيضان تغمرها وتظمرها برواسبها ، وكذلك ينبغي أن تقام سنوياً السكور التي ترفع المياه أمامها لتغذية هذه الجداول والقنوات ، وهم مضطرون أيضاً أن يقيموا سنوياً سدداً حول حقول مزروعاتهم ويقروا الخاتم منها خوفاً من أن تأتي نوبة فيضان عالية تهدمها وتغطي على الحقول ، وعدا هذه الصعوبات عليهم أن يقاوموا خطر الطيور البرية والسلاحف والأسماك .

وزراعة الدجن (القمح والشعير) التي تقوم وراء نطاق الشلب والذرة نحو داخل سهل العراق ، وإن شابهت زراعتها في أراضي هذا الداخل ، إلا أنها أكثر ضماناً ، فهي كمزروعات شتوية تتوفر المياه لها أكثر مما تتوفر لغيرها ، فالأمطار هناك تسقط بغزارة نسبية ^(١) لوجود السطوح المائية الواسعة في الأهوار ولقربها من الخليج العربي ، كما أن المياه الجارية في الجداول يسهل التحكم فيها بإقامة السكور في مجاريها ، ومن الملاحظ هناك في منطقة حقول الدجن ، أن حقول الشعير تتقدم نحو حافات الأهوار عن حقول القمح ، وذلك لأن هذه الغلة الأخيرة تحتاج أكثر من الشعير إلى الجفاف .

وفي جميع مناطق الزراعة في داخل الأهوار وعند حافاتهما لا تبدو دورة زراعية إلا في أرض البريع ، وهي التي تروى بالآلات ، فالأراضي التي تروى سيما تزرع كل سنة غلة واحدة هي الشلب أو الذرة اعتماداً على مياه الفيضان ، أما الأراضي التي تتوفر فيها بالآلات فإنها في الشتاء تروى بالغلات الشتوية زراعة مبكرة وعلى الأخص بالشعير ، حتى يمكن حصد المحصول في الوقت الذي تكون

(١) يبلغ المعدل السنوي تسقوط الأمطار في الهادة ٢١٢ مم وفي بغداد ١٢٤ مم وفي البصرة (المقل) ١٩٨ مم .

راجع : Archaeological and Climatological Means for Iraq, Baghdad, 1959, P. 43 .

فيه الجداول مملوءة بالمياه الحراء ، وبعد الحصد تنمر الأرض بهذه المياه وتبذر فيها حبوب الشلب وبعد حصاده تترك الأرض بوراً إلى مارس من السنة الثانية فتزرع بالذرة البيضاء ، وبعد حصادها يزرع الشلب فيها زراعة أقلية ، وفي السنة التالية يزرع أحد المحاصيل الشتوية غالباً ، وتترك الأرض بوراً عادة سنة بين كل سنتين من الزراعة أو ثلاث .

ومما سبق يلاحظ من يتقدم نحو داخل الأهوار ما يأتي :

بالنسبة للحيوانات : وجود نطاق تكثر فيه قطعان من النعم والمعز ويتلوه نطاق آخر تحتلظ فيه بعض هذه القطعان ببعض آجر من قطعان البقر والحير ، وعند حافة الأهوار تغلب قطعان البقر والحير ويرى بينها بعض من قطعان الجاموس ، أما في داخل الأهوار فتسود قطعان الجاموس .

وبالنسبة للمزروعات : وجرد نطاق تسود فيه زراعة القمح ويتلوه نطاق ثاني تسود فيه زراعة الشعير ، فطابق ثالث يتضمن بعض حقول للذرة بجانب حقول الشلب وينتهي بنطاق تسود فيه زراعة الشلب .

والمعدان وهم رعاة الجاموس لا يسعون في أوقات فراغهم للعمل خارج حدود أهوارهم ، وربما يرجع بعض السبب في ذلك إلى أنهم يجدون من غيرهم ازدياداً ، فمن المشاهد أن من أقصى السباب التي توجه لشخص من غير المعدان أن يقال له بأنه معيدي ، أما رعاة الحيوانات الأخرى والزراعي فإنهم يقومون في أوقات فراغهم ببعض الأعمال المثمرة ، فالرعاة يتنقلون في أوقات نصبح المزروعات من حقل إلى آخر يشتركون في حصادها وتعمل حيواناتهم في درسها ، ويأخذون في نظير ذلك نصيباً من غلتها ، فضلاً عن تغذية حيواناتهم من فضلاتها ، وكذلك يتنقل بعض زراعي إحدى هذه الغلات إلى حقول غلة أخرى للعمل في حصادها في مقابل نصيب منها ، وتبدو أهمية ذلك كبيرة بالنسبة لهم لما هو معروف من أن كل زارع متخصص في زراعة غلة معينة ويعتبرها وراثته عن آباءه وتقليداً ، وفي فصل الصيف يهاجر بعض من الذكور وبعض الإناث إلى بساكن النخيل على ضفاف شط العرب للاشتغال في الأعمال المتعلقة بجمع القور وتفتيتها وإعدادها للبيع وتستخدم مكابس القور هناك أعداداً كبيرة منهم ،

وفي فصل الشتاء تنشط السماء في جمع الأعشاب والأشواك لبيعها للوقود ،
وهن أحياناً يبحرنها في أماكنها ويبعنها كنوع من الفحم النباتي .

وسكان داخل الأهرار وحافاتها يستهلكون محلياً بعضاً من ثرواتهم ، ويتاجرون
في الباقي ، وبعض من هذا الباقي ينقله أصحابه في مشاحيفهم الصغيرة خلال الجداول
الكبيرة وعند شواطئ الجداول الكبيرة إلى الأسواق القرية منهم ، وبعض آخر
منه يبعونه لتجار متجولين يأتون إليهم في قوارب صغيرة ولديهم فيها بعض
ما يحتاجون إليه من لبن والشكر (السكر) والشاي وأوراق التبغ ، ومن بعض
الأطعمة كالصل والمقات والتمر والملح ، وكذلك بعض مما يحتاج الساء إليه لزيئتهم
ولغيرها ، ويستبدلون بها بعضاً من الزبدة أو الأرز أو جلود بعض الحيوانات
وريش الطيور ، وما يتبقى لديهم بعد ذلك وهو الجانب الأكبر من ثرواتهم
فيأتي له تجار آخرون لشراؤه بالجملة وينقلونه إلى الأسواق الكبيرة .

والتوجيه الجغرافي لثروات مناطق الأهرار نحو هذه الأسواق يرتبط بطرق
المواصلات الموصلة إليها ، وتصلح البرك والجداول المتصلة بها في وقت الفيضان
لسير السفن التي لا يتجاوز غاطسها نحو ه أقدام ، ولهذا فإن ثروات هذه المناطق
تنقل أثناء هذا الوقت إلى أقرب هذه الأسواق الكبيرة إليها ، أما وقت الانخفاض
حيث لا تصلح معظم هذه السطوح المائية والجداول إلا لسير المشاحيف الصغيرة
فإن اتجاه هذه الثروات يتحدد في مجرى الأنهار الكبيرة وعلى ضفافها ، والعمارة
هي السوق لثروات هور الخويزة ، وهي تنقل إليها جدول الكحلاء والمشرح ،
وبعض من ثروات هذا الهور تنقل إلى قلعة صالح عن طريق جدول المجرية ، ومنها
ينقل إلى العمارة عن طريق مجرى نهر دجلة أو عن طريق ضفافه ، والقسم الأكبر
نما ينقل إلى العمارة من ثروات هذا الهور يتجه نحو الشمال إلى بغداد ، أما ثروات
هور الحمار فلها اتجاهات أخرى ، فتنتقل معظم ثروات القسم الشرقي منه في القسم
الآدني من المجرى القديم للفرات إلى القرنة ومنها إلى البصرة أو إلى بغداد ، وتنقل
معظم ثروات القسم الغربي منه إلى سوق الشيوخ أو إلى الناصرية ، ومنها يصدر
إلى البصرة ، وقسم آخر إلى بغداد ، أما ثروات القسم الشمالي من هذا الهور فإنها
تنقل في شط الحمار أو في شط البدعة إلى الشطرة وغيرها من مدن الفراف ، وأما
ثروات القسم الجنوبي فإنها تنقل إلى البصرة عن طريق شط العرب وجانبه الآيمن .

